مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 07 (03) ديسمبر 2023 ص ص 458-472

المسار الإبستمولوجي لبناء المعرفة عند كانط من منطلق نقد العقل الخالص

TheEpistemological path to constructing knowledge according to kant from the point of view of pure reason critics

سمية، رواقات[1]* ؛ أحمد زيغمي[2]

[1]مخبر علم النفس العصبي والاضطرابات المعرفية السوسيو عاطفية، جامعة ورقلة (الجزائر). البريد الالكتروني المهني: rouagat.soumia@univ-ouargla.dz

[2] مخبر علم النفس العصبي والاضطرابات المعرفية السوسيو عاطفية، جامعة ورقلة (الجزائر). البريدي الالكتروني: a.zighmi@yahoo.fr

تاريخ الإيداع	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2023/06/05	2023/10/24	2023/12/01

الملخص: إن بداية التفكير الإبستمولوجي كانت مع التساؤل حول أصل الوجود وحدود وإمكانية المعرفة هي عقلية منطقية أم حسية، إذ يعتبر هذا الطرح أهم إشكالية انطولوجية في الساحة الفلسفية، إلا أن الفيلسوف الألماني إمانويل كانط (1724_1804م) تجاوز هذا الطرح محاولا اجتراح بحث يسلك فيه معالجة ذاك الإشكال القديم المتجدد، مسارا ابستمولوجيا هذه المرة، ملتمسا بذلك إقامة بناء معرفي يعتمد على الوظائف والأدوار الإبستيمية لكل من الحساسية، والفهم معا، حيث تمحورت الإشكالية الرئيسية في هذه المسألة حول إبراز قيمة هذه الثنائية في عملية الإدراك المعرفي العام بموضوعات ذات منشأ حسي ظاهراتي في الأساس. إذ يقوم فحص حدود العقل بالتمييز بين العلم والفلسفة وإقامة حدود فاصلة بينهما سواء من حيث الموضوع أو المنهج، ومن أجل تفكيك حيثيات هذا التوجه المتميز من نوعه في تاريخ الإبستمولوجيا وجب علينا اعتماد منهج نقدي وتحليليل هذا النظام المعرفي انطلاقا من العالم الخارجي ، وصولا إلى العالم الداخلي للإنسان من خلال نقد وتحليل موضوعات المعرفة، بهدف الوقوف على نتائج بحثية تتمثل في ربط مسألة نقد العقل الخالص كعمل توجت به اهتمامات كانط في مجال المعرفة، بالتجاوزالواضح والمتين للطرح الكلاسيكي في هذه القضية،من جهة عجزه عن القيام بأي زحزحة نقدية يعتد بها تجاه النظرة الأحادية في بناء صورة منطقية صارمة للمعرفة الحقة بالوجود.

الكلمات المفتاحية: *الحساسية ؛ الفهم ؛ العقل ؛ نظرية المعرفة.*

*المؤلف المرسل

Abstract: Epistemological thinking Started with the question about the origin of existence and the limits and possibility of knowledge. Is it a logical or sensory mentality? oldshapesTherenewed, epistemologicalpaththis time, seeking the establishment of a cognitive structure thatdepends on the functions and epistemicroles of bothsensitivity and understandingtogether, as itconstantlyconfirms the value of thisduality in the process of general cognitive perception with topics of sensory and phenomenalorigin in the first place. In order to dismantle the merits of this unique trend in the history of epistemology, we must analyzethisknowledge system, startingfrom the external world, all the way to the inner world of man throughcriticism and analysis of knowledge topics, in order to stand on the issue of criticism of pure reason as a workthatculminated in Kant'sinterests in the field of knowledge. , the latter whichItconstituted a clear and solid transgression of the classical proposition in this case, in terms of itsinability to makeanysignificantcritical shift towards the monisticview in building a strict logicalpicture of the trueknowledge of existence.

Keywords: *Keywords ; sensitivity; understanding; reason; epistemology.*

1. مقدمة:

تشهد الذاكرة الفلسفية على الثورة التي قام بها كانط في مجال المعرفة، والتي يتفق المهتمون بفلسفته على وصفها بالثورة الكوبرنيكية، وذلك لما قامت به من إعادة صياغة للمفاهيم التي تتأسس عليها نظرية المعرفة من خلال فحص ونقد العقل، وحدوده المعرفية.

هذا الاستباق الفلسفي الفريد من نوعه الذي تضمنه مشروعه نقد العقل الخالص "1781م" اهتم برسم الشكل المجرد للمعرفة البشرية،هذه الأخيرة التي لا يمكن أن تقوم في معزل عن الأسس والمقولات القبلية، كما أنها في الوقت نفسه لا تستقل عن التجربة والحساسية.

بناء على هذا التطابق بين ما هو حسي، وما هو عقلي، تتأسس حقيقة الأشياء في عقولنا كما هي عليه في العالم الخارجي؛ أي أن العقل والتجربة متكاملان في تزويدنا بالمعارف،إذ ركز كانط على هذا الإطار المنهجي وما يحتويه من مقومات وعناصر في شرح رؤيته لوظيفة الإدراك الحسي، وعملية الفهم،موضحا أن من شروط وخصائص المعرفة أن تعمل الحساسية على منح الموضوعات، وأن يعمل الفهم على منحها المعقولية الضرورية.

وقد فتحت هذا الرؤية التي عمل كانط على إنضاجها لمدة تزيد عن الإثنا عشرة عاما، أمام الباحثين الإبستيمولوجيين ذاك الأفق الذي يجمع بين المنطقية، والأخلاقية في آن معا، ألا وهو ما سماه كانط، بالدروب الآمنة للمعرفة. أو دروب المعرفة الآمنة. والتي اختار كانط عن إدراك واستيعاب متأن لتاريخ الفلسفة الطويل، أنها لن تكون كذلك إلا إن هي أفسحت المجال أمام الحساسية والفهم كلاهما كما يؤسسان نظرية للمعرفة قمينة باحترام رجال الطبيعة والرياضة على السواء.

هذه الخطوة نحو إعادة النظر في إمكانية المعرفة تدفعنا إلى التساؤل: عن مدى تمكن كانط من إعادة توجيه المسار الإبستمولوجي بواسطة الوظائف المعرفية المتمثلة في ثنائية الحساسية والفهم وصولا إلى نقد العقل الخالص؟

كان الهدف من هذا التفكيك الابستمولوجي لثنائية الحساسية والفهم الوقوف على تلك الخصوصية الفلسفية والفكرية التي تميز بها طرح كانط في مجال نظرية المعرفة وتاريخ الابستمولوجيا بصفة عامة، إذ قادتنا هذه المهمة إلى توظيف المنهج النقدي،التحليلي والتاريخي اللذان كان لهما الدور الكبير في فحص وتتبع حيثيات الأطر والمفاهيم التي تضافرت فيما بينها في تكوين مشروع نقد العقل الخالص كقاعدة متينة شُيدت بموجبها ثنائية الحساسية والفهم كتميز فلسفي وفكري شهدته تاريخ الابستمولوجيا .

2. الوظيفة الابستمولوجية لثنائية الحساسية والفهم .

1.2 دور الحساسية في بناء المعرفة

يقدم لنا كانط المفهوم العام للحساسية على أساس أنه القدرة على تلقي وتقبل الموضوعات الوافدة للحس، التي بدورها تزودنا بالحدوس الحسية، أي أنه يفرق بموجب هذه الصورة بين التجربة الحسية، والحساسية؛ فالحواس الخمسة تمثل الحاسة وليست الحساسية لكن قبول الانطباع الحسي لتلك الحواس يكون بواسطة القدرة التي تسمى حساسية. ويمكننا القول أن مفهوم كانط عن الحساسية هو أن لاشيء يسبق التجربة

مصدرا أوليا للمعرفة، وأن التجربة هي في ذاتها مركبة: من قابلية لاستقبال الانطباعات الحسية، والمعرفة الخام (الحواس) التي تُستقبل عن طريق الحدوس.

وعلى هذا الأساس يكون الإطار العام والشامل الذي يحكم مفهوم الحساسية هو القدرة على تلقي التمثلات بالطريقة التي بها تتأثر الموضوعات الوافدة،وبواسطة الحساسية تُعطى لنا الموضوعات، وهي وحدها تزودنا بالحدوس، لكن الذهن هو الذي يفكر في الموضوعات ومنه تتولد التصورات (كانط، د س، ص46).

انطلاقا من الطرح السابق عن مفهوم الحساسية يمكن القول أنها العنصر الأول الفاعل في كل عملية إدراك،وفق توجه كانط الإبستمولوجي، كما أنّ الصفة الأساسية في نشاط الحساسية هو أنها أولية زمانية؛ أي أنّ عملية الفهم، وتنظيم الموضوعات تحصل بطريقة متدرجة، بداية من الانطباعات الحسية، مرورا بالقدرة على تلقي الموضوعات الخارجية وربطها بالعالم الداخلي للإنسان، بحيث يتمثل دور الحساسية في القدرة على استقبال الإحساسات الخارجية، وترجمتها إلى موضوعات قابلة للفهم من طرف العقل البشري، أي أن الحساسية هي العنصر الوحيد الذي يمنح الاتصال المباشر مع العالم الخارجي، وبتعبير أدق هي من تجعل الذات تخضع لتأثير الأشياء والمعطيات الخارجية .

يشترط كانط في الصورة الكاملة للمعرفة توفر عنصرين أساسين هما: التصور والحدس، فلو افترضنا أننا لا نملك إلا حدوسا لهذه الحساسية، فعندئذ تتوقف طبيعة معرفتنا كلها على طبيعة هذه الحدوس، وإذا انصبت هذه الحدوس على معرفة موضوع موجود في ذاته، وصلنا إلى معرفة الأشياء في ذاتها، وإلا فستكون محدودة في حدود الظاهرات (كانط، د س، ص44) ينشغل كانط في هذا النص بشرح وتحليل الدور الوظيفي الذي تقوم به الحساسية في تحصيل المعرفة الإنسانية، هذه الأخيرة أصبحت من هذا المنطلق غير قابلة للنظرة الأحادية التي تكرس الرؤية المشوشة لما هو حسي، ولما هو عقلي في العملية الإدراكية، بل اتخذ مسار نظريته المعرفية بهذا التحديد

الإبستمولوجي شكلا ومضمونا قاعدة متينة تجتمع فيها ثنائية الحساسية والفهم في إدراك طبيعة كل بناء معرفي، مادام لاشيء يسبق التجربة، مصدرا أوليا لمعارفنا، دون إغفال الطابع التركيبي لتلك المعارف في الأساس، فهي في ذاتها ليست سوى كتلة من المعطيات التي تقبل الاستيعاب في صورة انطباعات حسية، تنتظر الفهم كي يسلط عليها وظيفته العليا المتمثلة في إحكام تنظيمها، وتجلية تشوشها الحسي.

كل هذه المعطيات تجعلنا نقر بأن الحساسية هي العنصر الفعال في تقديم المادة الخام (الحواس) التي تستقبلها مشفوعة بعمل قبلي للحدس هو حدس يجعل من الزمان والمكان صورتان أوليتان لكل معرفة ممكنة، قبل أن يتدخل الفهم بوظيفته الذهنية، بشكل تلقائي مباشر، فيشرع في تنظيم،ترتيب، وتركيب هذه الموضوعات من أجل ترجمتها في تصورات، ثم أفكار، تتويجا لمسار منطلقه حدسي حسي ومستقره مفهومي فكري.

2.2 الصراع الابستمولوجي حول نظرية المعرفة .

لقد كان هذه المعمار الفلسفي في تاريخ الإبستمولوجيا بمثابة تصحيح للتوجهات السابقة في نظرية المعرفة* التي تمثلتهاالإبستمولوجيا قبل كانط مع المثاليين، والتجريبيين،والتي أسست في إطارها العام لنظرة أحادية، تفصل بين وظيفة الحساسية، ووظيفة الفهم في كل بناء معرفي، إذ نجد النزعة المثالية قد قدمت صورة للمعرفة لا تتجاوز حدود العقل، بحجة أن الحقيقة لا يمكن أن توجد خارج معاني العقل، لأنه الملكة الوحيدة التي تستقل بوظيفة الحكم والتمييز بشأن الموضوعات الخارجية، هذا الحكم الذي يجعل من هذه الموضوعات يقينية وصادقة بالضرورة ، بالمقابل من هذا انحازت النزعة التجريبية إلى تبجيل دور التجربة مُسّوغة هذا الاختيار المنهجي، بالقول: أن العقل ذا طابع صوري خالص بمعزل عن التجربة الحسية (كانط، د س، ص59).

لو أردنا أن ندخل إلى النزعة التجريبية من بابها الواسع فسنجد أنفسنا مجبرين على اقتحام توجهات دافيد هيوم... الفكرية بخصوص نظرية المعرفة وذلك لأسباب قوية

سنذكرها في المراحل اللاحقة من التحليل، إذ نجده يقوم بتحليل مضمون الخبرة الحسية من أجل أن يعطينا صورة عن المعرفة البشرية* بوصفها تتألف من الإحساسات التي يتلقاها الإنسان عن طريق الحواس، أي أنه حاول تأسيس مفهوم للطبيعة البشرية على أسس تجريبية ، تتجاوز النظرة الكلاسيكية القائمة على مفهوم الفطرة في مجال المعرفة (هيوم، 1983، ص ص 98-99).

يرفض هذا التصور أي معرفة لا تأتي من الخبرة الحسية هذه الروح النقدية لطبيعة المعرفة البشرية كانت بمثابة القاعدة المتينة التي سيعول عليها كانط في بناء الطرح الإبستمولوجي الجديد.

من داخل ساحة هذا الصراع بحث كانط عن مخرج يضمن سلامة الصورة التي يطمح لتأسيها في نظرية المعرفة، إذ وجد في آلية النقد المنفذ الذي بإمكانه أن يتجاوز هذا الصراع الحاد في الإبستمولوجيا الكلاسيكية، مؤكدا أن المعرفة لا يمكن لها أن تبنى بصورة أحادية تنفصل فيها وظيفة الحواس، عن وظيفة العقل والذهن والفاهمة، ولو صوريا، هذه الطبيعة الاتصالية التي ترسم الإطار العام للعملية الإدراكية في إبستمولوجيا كانط، تنطلق من دور الحساسية في منح الموضوعات للفهم؛ لأن العمليات العقلية المركبة من تفسير، وتركيب هي من ستقوم فيما بعد بوضع الصورة النهائية والكاملة لكل بناء معرفي،بمعنى أن النشاط العقلي يطبق على هذه المادة الخام المُتحصل عليها بواسطة الحساسية، هذه الأخيرة التي لولاها لكانت المعرفة عدما، وبعبارة أخرى لا يمكن لوظائف العقل العليا أن تعمل أبدا في ظل الخواء الحسي المطلق. لا تكمن مكاسب هذا المسار الجديد في حل الصراع الإبستمولوجي من حيث التفضيل، بل كان مشروع عول على نقد حدود العقل المعرفية حتى يتسنى له تأسيس مشروعية قيام الميتافيزيقا، فثنائية الحساسية والفهم في علاقتها مع الحكم التركيبي القبلي يعكس صلتهما بالعلم وأسس الميتافيزيقا، بهذا نقل كانط مسار الفلسفة ومهمتها ووضعها في سجال مع العلم بحيث يأخذ كل منهما مكانته

الطبيعية ومجالاته المعرفية إن المخرج الذي قدمته هذه الفلسفة النقدية هو التميز بين العلم والفلسفة وإقامة حدود بينهما.

يدين كانط بهذه اليقظة الأمبيرية إلى هيوم... ذاك الرجل النبيه الذي اعترف بفضله صراحة في تصويب رؤيته المنهجية لنظرية المعرفة ككل: ***"لقد أوقظني هيوم من سباتي الدغمائي"*** (كانط، 1991، ص78)،إن استنطاق هذا القول يقودنا إلى محاولة البحث عن الأسباب الكامنة وراء هذا التصريح والتي وجدناها تتمثل في التأثير القوي الذي مارسته توجهات هيوم على كانط،وبخاصة فيما تعلق بعدم وجود معرفة يقينية مطلقة دائما، كما لا يمكن أــن توجد أي معرفة دون تجربة،هذه الالتفاتة التي لا نحسبها -من وجهة نظرنا- بسيطة أبدا؛ وكيف لا تكون كذلك وهي قد أعادت توجيه مسار الإبستمولوجيا ما بعد الكانطية بأكملها، كما تبرز تجاوز كانط للحساسية المعتادة عند الفلاسفة والمثقفين بشكل عام، من الاعتراف بفضل بعضهم البعضهم، وقد كان كانط ذكيا في اغتنام هذه الفرصة من أجل رسم الخطاطة الإبستيمولوجية النهائية التي يجب أن تقوم عليها نظرية المعرفة الحديثة، كما سعى في الوقت نفسه إلى وضع حل نهائي للصراع المرير بين الكليات، والذي يتأسس بطريقة أو بأخرى على الانتصار إلى أحد نظريتي المعرفة التقليديتين، ونعني بهما العقلانية التجريبية وأسسها المادية، والعقلانية المنطقية وأسسها المثالية، إذ هما النظرتان المغذيتان للصراع بين رجال اللاهوت، ورجال العلوم.

3. البناء الابستيمي للمعرفة انطلاقا من نقد العقل الخالص.

1.3 مفهوما الزمان والمكان في ابستمولوجيا كانط .

يؤكد كانط هذه الرؤية الجديدة في نظرية المعرفة، من خلال المفاهيم القبلية، والتي نخص بالذكر منها مقولتا الزمان والمكان، هذا الأخير الذي يعد الشرط الأساسي لكل تجربة، كما أننا إذا استطعنا أن نربط الحدوس وتجاهلنا تصور المكان يمكننا أيضا تصور حدوث التجربة دون موضوعات (كانط، د س، ص61)، من خلال هذه الرؤية يتضح

الارتباط الوثيق بين الموضوعات والتصور القبلي للمكان، وأن أي محاولة لتجاهل هذه العلاقة هو أمر غير ممكن منطقيا، كون هذا التصور هو الشرط الأساسي الذي يتأسس عليه فهم الظواهر، إذ لا يمكننا بأي شكل مهما كان نوعه أن نتصور وجود موضوعات خارج المكان، وهناك شواهد واقعية كثيرة تثبت هذه الفكرة، فيكفي أن نضرب مثالا عن غرفة تكون مليئة بالأثاث الذي باستطاعتنا رؤيته وفق عملية إدراكية واضحة، وذلك راجع إلى أن الموضوعات تمثلت في الحساسية عن طريق فاعلية الحواس، هذه العملية تثبت لنا أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نتخيل وجود هذا الأثاث في الفراغ مما يجعلنا نجزم على أن تصور المكان لا يصنف داخل خبراتنا الحسية التي تجعل من موضوع ما، موضوعا واقعيا بقدر ما هو تصور قبلي ضروري،هذه الميزة هي تمنحه ميزة الحدس الخالص،المستقل عن الأجزاء والعناصر المادية التجريبية.

لا تكتمل هذه القاعدة الإبستيمية التي وضع كانط حجرها الأساس، إلا بمفهوم الزمان كشرط آخر، يساهم في اكتمال الصورة النهائية للإدراك، كونه هو الآخر لا يمت بأدنى صلة لأي تجربة حسية، بقدر ما يأخذ أصالته من قدرة القبلي والأولي الموجود في العقل البشري وجودا ماهويا؛ إذ لا يمكن تصور أي موضوع خارج إطار زماني محدد، مما يجعل هذا المفهوم مسؤولا عن منح الاتساق الضروري لكل إدراك موضوعي، هذا ما نلمسه في هذا النص " ***إن إدراك أي تجربة كانت مرتبط بمفهوم الزمان ،كما أن الظاهرة أساسا تشمل الظاهرة في حد ذاتها وإمكانية حدوثها، والزمان ليس مرتبطا بالظاهرة بقدر ماهو مرتبط بإمكانية حدوثها***"(كانط، د س، ص64)، إن تصور الزمان ضروري في تشكل الحدوس. توضح ظاهرة نزول المطر فعليا، أن هذه الحادثة حادثة واقعية ، أما بخصوص الحديث عن إمكانية نزوله قبل أن ينزل أو بعد أن ينزل فهي مرتبطة بشكل مباشر بالزمان؛ أي أننا لا نستطيع أن نفكر في إمكانية حدوث هذه الظاهرة بمعزل عن

الزمان، وكل تصور خارج هذه القاعدة غير ممكن منطقيا، وعلى هذا الأساس يشترط في كل بناء عام للحساسية تدخل مقولتا الزمان والمكان.

2.3 مفهوم الذهن ووظيفة العقل

يربط كانط مفهوم الذهن بوظيفة الفهم، الذي بدوره يمثل جانبا من القدرة على التفكير، وبناء التصورات، إن الذهن لا يمكنه أن يفكر إلا في المعطيات التي تقدمها الحساسية المسماة بالتمثلات، وإذا أردنا أن نضع مفهوما دقيقا للذهن،فنستطيع أن نقول أنه حسب تصور كانط ***"ملكة ينحصر دورها في تنظيم وربط التمثلات أي التركيب بين معطيات الحساسية لتحصيل معرفة قابلة للفهم"*** (كانط، د س، ص27). إن المعرفة ترتبط نظريا وبشكل مباشر بكلمة القدرة، فقد ميّز كانط وظيفة الحساسية بكلمة القدرة على استقبال التمثلات أو الموضوعات الآتية عن طريق الحدوس الحسية، أي أن لها دورا متمثلا في استيعاب التمثلات ذات المنشأ الحسي، كما رأى كانط كذلك في الذهن أنه قدرة هو الآخر وأن وظيفة قدرته تنحصر في تنظيم مضامين الحساسية في صور منطقية.

إن الارتباط بين الذهن والحساسية بشكل عام يكمن في القدرة على فعل التعيين للذهن، بخلاف الحساسية التي لا يمكنها الجمع بين وظيفتي استيعاب المحسوسات وتنظيمها في الآن نفسه؛هكذا يصبح الفرق بين وظيفتي القدرتين يتمثل في أن الذهن يسبق الحساسية منطقيا، بينما تتقدم الحساسية على الذهن زمنيا؛ وإن لم يكن من السهل استيعاب هذين الضربين من السبق والتأخر حينما ينفكان عن الزمن، كما هو حاصل بالنسبة لذلك الضرب من السبق الذي للذهن من جهة كونه تقدم منطقي في الأساس، ومع ذلك يبقى ***الفهم هو الوظيفة الإبستمولوجية الأكثر تعينا للذهن*** (كانط، د س، ص27).

إن قدرة الذهن التي تحدثنا عنها سابقا هي العنصر الأساسي الذي يجعل الذهن عنصرا فعالا ويجعل من الحساسية عنصر منفعلا، لكن كيف ذلك؟

إن وظيفة الحساسية المتمثلة في استقبال التمثلات عن طريق الحدس، تجعل منها عنصرا منفعلا؛ لأن الموضوعات التي تأتي من الخارج على شكل موضوعات خارجية عن طريق الحدوس تؤثر في الحساسية، وتنقلها مبهمة مفككة إلى الذهن، كي يقوم هذا الأخير بتنظيمها وترتيبها، مانحا إياها تعيينا كذاك الذي تمنحه الصورة للمادة؛ أي أن الحساسية هنا عنصر منفعل، شأنه شأن الموضوعات التي هي مضامينه، لكن الذهن فاعل من منطلق أنه يقوم بإعادة تنظيمها بواسطة المقولات، كي يتمكن من ملاءمتها مع الحدوس. وهو ما يمنحه وظيفة أعلى،يكون بها فاعلا؛ وإن كانت المحسوسات باقية في صنيعه التنظيمي بآثارها المنطقية نفسها؛ إذ هو لا يمنح المضامين للحدوس من عنده، بل يستخلصها استخلاصا من التجربة؛ لأن الحدوس القبلية فارغة بنفسها عديمة الدلالة، وهي لا تتعين بواسطة الذهن إلا لأن لها مادة يموضعها الذهن بإزاء الحدوس القبلية، فتصبح قابلة للفهم بما هي تعيين مادته حسية، وصورته حدسية.

فسر كانط الترابط الإبستمولوجي الموجود بين الحساسية والفهم، بكون كليهما خاصيتان معرفيتان تابعتان لبعضهما البعض، لا تنفصل إحداهما عن الأخرى،فمن دون الحساسية لن يُعطى لنا أي موضوع، ومن دون الفهم لن نتمكن من التفكير في شيء، إن الأفكار دون مضامين فارغة، والحدوس دون أفاهيم مشتتة (كانط، د س، ص28).

لقد واجهت نظرية المعرفة عند إدموند هوسرل سؤالا يقترب من الاتصال الوظيفي الموجود بين الحساسية والفهم في كل عملية ابستمولوجية مع وجود بعض الاختلافات بين التصورين، إذ يقدم هوسرل هذا التصور في إطار ما وصفه بعلاقة الذات بالموضوع انطلاقا من سؤال محوري مفاده كيف تكون المعرفة ممكنة محاولا تجاوز التصورات الكلاسيكية لنظرية المعرفة وإعطائها صبغة موضوعية شبيهة بما تبناه كانط في مشروع الابستمولوجيا، فمحاولة هوسرل تكمن في تحديد طبيعة العلاقة بين الذات والموضوع مستعينا بمنهج الفينومولوجيا، إذ يعتبر من أشهر مناهج البحث الفلسفي المعاصر،وقد

ارتبط بهوسرل بالتحديد كونه من وضع أسسه ووسع آفاقه، إذ يعرفه بأنه "العلم الذي يدرس خبرة الوعي، خبرته بالأشياء وخبرته بذاته، كونها تجعل نظرية المعرفة علما صارما وذلك لأنها تمكن الذات العارفة من المعرفة المباشرة لكل موضوع، أي نظرية المعرفة هي تمكن الذات من بلوغ الأشياء كما تظهر عليه دون إقحام المقولات الخاصة بالذات (هوسرل، 2007، ص ص 31-32)، تعمل فينومولوجيا هوسرل عل رد كل أشكال المعرفة إلى الخبرة المعرفية للوعي التي تثبت فاعليتها بصورة قبلية، بوصفها حلا فلسفيا وتاريخيا لمشكلة نظرية المعرفة .

إن الغوص في نظرية المعرفة عند هوسرل إنطلاقا من المنهج الفينومولوجي والأسلوب الترسندنتالي يجعلنا نتوقف عند فكرة جوهرية تضمنها توجه هوسرل بخصوص نظرية المعرفة والتي أقرت أنه لا يمكن الفصل بين العقل والموضوع المدرك لأن العقل يتميز بالمعرفة العقلية المحضة بفضل الوظائف الترسندنتالية كصفة ملازمة للنفس البشرية في عملية فهم الموضوعات "فالعلم عموما هو إنجاز بشري ،لبشر يجدون أنفسهم مسبقا في العالم" (هوسرل، 2008، ص196). لا مجال للشك أن الاتفاق الموجود بين هوسرل وكانط يرتبط بأن المعرفة ممكنة بالنسبة لكل ذات عارفة على نحو لا يقبل أي انفصال،لكن هذا لا يمنع من وجود اختلافات يمكن أن نرصدها في أن هوسرل لا يميز بين الشيء وظاهره وذلك من خلال العودة إلى الأشياء في ذاتها،بينما تتضمن نظرية المعرفة عند كانط التميز بين ظاهر الأشياء والأشياء في ذاتها وهو ما يصطلح عليه عالم النومان والفينومان كما وضحهما في كتاب نقد العقل الخالص. ومهما كان هذا الاختلاف موجود لا تفوتنا الإشارة إلى أن توجه هوسرل يدين بطريقة أو بأخرى إلى اجتهادات كانط في مجال الابستمولوجيا.

إن أول ما استثار نقد كانط هو تلك الهالة التقديسية التي لف بها العقل، وغياب الشجاعة النقدية في الساحة الفلسفية ككل، إذ تعجب كانط كيف أنه لم يوجد فيلسوف حتى

الآن، أو مفكر قبله وضع هذا العقل تحت النقد والتمحيص، إن التعجب الذي اعترى كانط إزاء قدسية العقل وعدم قدرة الفلاسفة على نقده يكمن في أنهم لم يقوموا بنقده نقد الأداة المفضلة في تحصيل المعرفة فقط، بل إن تقبل كل ما يصدر عنه من أحكام دون أدنى تشكيك في قدراته المعرفية، هو ما لفت انتباهه بشكل حاسم، وإن كان قد أبدى استغرابه من إغفال كل بحث عن مرشد يشد بيد العقل في سبيل الوصول إلى المعرفة الحقة، فقد انتبه هنا إلى ضرورة نقد هذا العقل وكل ما يصدر ممهورا باسمه، فحصا دقيقا وجب أن يسبق الاعتماد عليه أداة لتحصيل المعارف الحقة (كانط، د س، ص8).

إن معرفة حدود العقل ووظائفه وقدرته على تحصيل المعرفة مقترنة بالفصل في مسألة إمكان أو عدم إمكان عدّ الميتافيزيقا علما، وتعيين مصدرها، ونطاقها، وحدودها بناء على مبادئ العقل (كانط، 1991، ص 44)، إذا أردنا أن نصوغ مفهوما عاما لنقد العقل الخالص، نستطيع أن نقول أنه هو فحص نظام الأسس القبلية، ومقتضيات العلم السابقة التي بفضلها تقوم المعرفة العلمية وذلك ببيان استعمال هذه الأسس القبلية والمقتضيات المنطقية

كما أنّ الإلمام بحدود العقل ووضعه تحت مشرط النقد، ليس له أبعاد إبستمولوجية بحتة؛ بقدر ما له أدوار في إثبات علمية الميتافيزيقا، وهو الدور الذي ظل مسكوتا عنه، في تناس واضح وصارخ للغاية الجوهرية من نقد الخالص، والمتمثلة أساسا في الكشف عن إمكانية بلوغ الميتافيزيقا مرتبة العلوم الفيزيائية والرياضية، ومن ثمة دروب العلم الآمنة من عدمه، وليس مجرد الإجهاز على الميتافيزيقا، كما سعت إلى اختزال الكانطية فيه أعمال الكانطيين التحليين من رواد مدرسة ماربورغ وعلى رأسهم أرنست كاسيرر (Cassier Ernst, 1955, pp 80_81) من منطلق العصر الذي عاشه كانط، كانت النظرة إلى العقل على أنه ملكة لاستخلاص النتائج ومن ثمة على أنه متمم للعلوم عن طريق الأقيسة، أمّا كانط فقد اعتبر العقل من أوسع الملكات العقلية شمولا،أي الملكة التي من خلالها

نتعرف على بقية ملكاتنا، وعلى حدودها الوظيفية، ومن ثمة فهو الوحيد القادر على أن يكون موضوعا لنفسه بنفسه، فهو باعتباره ملكة المبادئ؛ أي الملكة التي تقدم القوانين والقواعد التي ينبغي أن تنظم كلا من السلوك الإنساني والعلمي والتساؤلات النظرية، لن يكون له حكم غير نفسه.

إن غايات العقل، أو شؤونه المخصوصة لا تخضع للتجربة، ولا لهيئات أخرى خارج العقل أو فوقه ،كما أن كل المسائل التي يقترحها العقل الخالص علينا لا يمكن أن تكون في التجربة بل في العقل وأن معطيات العقل موضوعها هو كتاب نقد العقل الخالص، أما الإرادة وفعلها فهو موضوع نقد العقل العملي، أمّا الخيال فقد خصص له كانط كتاب نقد ملكة الحكم (بورتوا، د س، ص45)، إن الأصل في إبستمولوجيا كانط هو تساؤله عن طبيعة المعرفة وحدودها وعلاقتها بالوجود ورأينا أنه قد اعتبر هذا التساؤل إجراء ضروري لكل من يريد استخدام العقل في اكتساب المعرفة قبل الوثوق بها والاعتماد عليها.

ما قام به كانط يمكن أن نصفه بأنه تحليل للمهمة الإبستمولوجية العليا للعقل متمثلة في الآلية التي توجه إصدار الأحكام عامة، وهو يذهب إلى القول" ***بأن أفكار العقل الخالصة ليست سوى مفاهيم أولية، وأنه لا يمكن - بخلاف المقولات - تمثلها في أي خبرة ممكنة تتولد عن طريق العقل ذاته، وتنشأ هذه الأفكار حينما يحاول العقل التفكير في كمالها***"(كانط، د س، ص59)، يمكننا أن نوضح هذا المقصد بمثال مفاده أن كل تغير في حالة أي جوهر مادي في العالم يحدث من خلال قانون السببية، وهكذا إلى ما لا نهاية، فيزودنا كانط هنا بفكرة السبب الحر والتلقائي الذي يولد أوليا عن طريق العقل الذي لا يطابقه أي شيء معطى في العالم المحسوس، هذا ما جعله ينظر إلى أفكار العقل من ناحيتين واحدة سلبية والأخرى إيجابية، الأولى تتمثل في ميل العقل الإنساني إلى الانتقال من حالة تقوده إلى حالة أخرى تقوده نحو الوهم،أما الحالة الثانية فترتبط بأفكار العقل التي

تقوم بوظيفة إبستمولوجية ترشد وتوجه التساؤلات الإنسانية، وهذه الأخيرة معلولة هي الأخرى بمبادئ أكثر ترنسندنتالية، الذي يمكن القول عنها بأنه أسمى قاعدة آمرة لقواعد العقل الناظمة للمعرفة انطلاقا من مبدأ الضرورة نفسه، بوصفه مبدأ مؤسسا لإمكانية المعرفة نفسها.

4. الخاتمة:

في النهاية تركن مسألة المعرفة البشرية في الطرح الإبستمولوجي عند كانط إلى التأليف المنطقي بين المحسوس والمعقول، في صورة غير قابلة للفصل وإن صوريا. هذه الصورة التي أراد كانط أن يمنحها مقام الأساس في تاريخ الإبستمولوجيا، تؤكد ضرورة القبلي،الأولي، في الذهن. دون أن تُغفل ما تقدمه الحساسية، في استبعاد صريح لكل إمكانية للقول بالحدوس الخالصة.

هذا التأليف المنطقي بين الحساسية والحدس، لا يحصل إلا على أرضية الفهم وبفعالية يمكن تسميتها فعالية الاتساق الضروري، يرتفع احتمال وجود أي اختلافات ماهوية موضوعية بين مضامين الموضوعات الحسية التي هي الظاهرات، وتصوراتها التجريدية، وهو ما لم يكن ممكنا إلا بعد أن تفطن كانط إلى ضرورة دمج مفهومي الزمان والمكان، بوصفهما صورتان قبليتان مقومتان للحساسية الخالصة، هذا البناء العام للمعرفة يؤكد على أن العملية والوسيلة التي يمنح بها الذهن العقل فرصة متجددة ودائمة لإدراك موضوعاته بوصفها مفاهيم، تنتظم ضمن تصميم أحكم تنظيما هو الأفكار، لا تخرج عن مسار ينطلق من الحس، ويستقر إلى معرفة موضوعية في العقل صاحب السلطة العليا على التنظيم.

5. قائمة المراجع:

المراجع باللغة العربية:

بوتتروا؛ ايميل. (د س).*فلسفة كانط*، تر: عثمان أمين، د(ط)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.

كانط، إمانويل. (1991). *مقدمة لكل ميتافزيقا مقبلة أن تصير علما متبوع بأسس ميتافيزيقا الأخلاق*، تر: نازلي إسماعيل حسين ومحمد فتحي شنيطي، د(ط)، دار موفم للنشر.

كانط، إمانويل. (د س).*نقد العقل المحض، تر: موسى وهبة*، د(ط)، دار الإنماء القومي، بيروت، لبنان.

هوسرل، إدموند. (2007). *فكرة الفينومينولوجيا*، تر: فتحي إنقزو، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان.

هوسرل، إدموند. (2008). *أزمة العلوم الأوربية والفينومولوجيا الترنسندنتالة*، تر: إسماعيل مصدق، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.

هيوم، دافيد. (2008). *تحقيق في الذهن البشري*، تر: محمود حجوب، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان.

المراجع باللغة الأجنبية:

Ernst,Cassier. (1955).*The philosophiy of Symbolic Forms*,volume1, translated by Ralph Menheim,New Havan, London yale Universitity press..